

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس السادس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين:

فلما استقرَّ بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام؛ مثل الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأذان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام. أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها تُوفي صلوات الله وسلامه عليه، ودينه باقٍ، وهذا دينه، لا خير إلا دَلَّ الأمة عليه، ولا شر إلا حذرَها منه. والخير الذي دَلَّها عليه: التوحيد وجميع ما يُحبُّه الله ويرضاه. والشر الذي حذرَها منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين: الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وأكمل الله به الدين والدليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. والدليل على موته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿ [الزمر: ٣٠-٣١].

والناس إذا ماتوا يُبعثون، والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أُنْتَبِخَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿ [نوح: ١٧-١٨]. وبعد البعث محاسبون ومجزئون بأعمالهم؛ والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبُعْثِ كَفَرَ، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتَنْبُؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿ [التغابن: ٧٠].

فإن المصنف رحمه الله لا يزال يبين ما يتعلق بالأصل الثالث وهو معرفة العبد نبيه ؛ حيث ذكر رحمه الله تعالى فيما سبق شيئاً من أخبار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ذكر نسبه ومولده ونشأته ، وذكر أنه عليه الصلاة والسلام نبي ب «إقرأ» وأرسل ب«المدثر» ، وذكر أيضاً الأذى الذي حصل له من قومه وتمائمهم

على قتله عليه الصلاة والسلام ، وأن الله سبحانه وتعالى أذن له بأن يهاجر إلى المدينة، وأنه عليه الصلاة والسلام هاجر إلى المدينة، ثم تحدث عن الهجرة وأنها واجبة وباقية من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، وذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة . بعد ذلكم أخذ يبين حال النبي عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة حيث استقر عليه الصلاة والسلام في المدينة .

قال : ((فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام)) أي أنه عليه الصلاة والسلام في مكة - كما سبق إيضاح ذلك عند المصنف - مضى عشر سنين بعد مبعثه ﷺ لا يدعو إلا شيء إلا للتوحيد ونبد الشرك ، ولم يؤمر بشيء آخر ولم يوح إليه بشيء آخر إلا بالتوحيد ودلائل التوحيد وبراهينه ؛ هذا الذي كان في العشر سنوات الأولى من مبعثه صلوات الله وسلامه عليه . ولما أتم عشر سنوات في الدعوة إلى التوحيد أمر بالصلاة ، وسبق إشارة المصنف إلى الإسراء والمعراج وأن الصلاة فرضت على النبي عليه الصلاة والسلام فوق سبع سماوات ، وسمع أمر الله سبحانه وتعالى بها من الله مباشرة - ﷻ - ، فالذي فرض عليه في مكة التوحيد ونبد الشرك ، ثم بعد عشر سنوات فرضت الصلاة ثم لم يفرض عليه شيء إلى أن هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام واستقر بها ، بعد ذلكم بدأ يوحى إليه عليه الصلاة والسلام بالفرائض والأوامر الأخرى كما يأتي بيان ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام)) أي لما استقر بالمدينة بعد الهجرة إليها وقوي أمر التوحيد وشاع وانتشر واتضح للناس وابتعدوا عن الشرك ومن الله جل وعلا عليهم بالهداية للتوحيد ؛ بعد ثبات التوحيد وتقرير دلائله وحججه وبيناته واتضح هذا الأمر بعد ذلكم جاءت الفرائض ؛ وهذا فيه التنبيه أن الأعمال لا تفيد إلا إذا أُرسي أساسها وثبتت عمادها ، أما ما لم تكن كذلك فإنها لا تفيد ولا تنفع ، شأن البيت إن لم يبنى على أساس ثابت وعماد راسخ سرعان ما يتهاوى وينهار . ولهذا مكث عليه الصلاة والسلام طويلاً يثبت التوحيد ويذكر دعائمه ودلائله وحججه وبراهينه ويرسخ ذلك في الناس ، ثم بعد ذلك جاءت الفرائض ؛ لأن الفرائض لو أقيمت على غير أساس لا تفيد ، فهي إنما تكون نافعة إذا أقيمت على أساس ثابت وأصل راسخ ؛ وهو توحيد الله جل وعلا .

ولهذا ينبغي أن يعي الناس ، أن يعي المسلمون هذا الأمر العظيم من سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام ، يجب أن يعي المسلمون ذلك ؛ عشر سنين كاملات من مبعثه عليه الصلاة والسلام أمضاها في التوحيد فقط والتحذير من الشرك ، ثم بعد ذلك تُفرض الصلاة فقط ويبقى على ذلك الحال وقتاً ، ثم لما استقر بالمدينة وبعد أن استقر بها وقتاً بدأت الفرائض الأخرى كما سيبين ذلك المصنف رحمه الله تعالى . فهذا ينبغي أن يستفيد المسلمون منه درساً عظيماً ألا وهو: العناية بأمر التوحيد والحذر من الشرك والعناية بتثبيته وفهمه ومعرفة دلائله وحججه وبيناته من كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((فلما استقرَّ بالمدينة أُمِرَ ببقية شرائع الإسلام مثل: الزكاة، والصَّوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) هذه الفرائض «الزكاة والصَّوم» فرض على النبي ﷺ في السنة الثانية من الهجرة ، و«الحج» فرض عليه صلوات الله وسلامه عليه في السنة التاسعة من الهجرة ، والإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ وهذا هو الأساس أمضى فيه عليه الصلاة والسلام عشر سنوات ، ثم بعد ذلك تأتي الصلاة وهي عماد الدين فُرضت عليه بمكة في السنة العاشرة من البعثة ، بعد أن أمضى عليه الصلاة والسلام من بعثته عشر سنوات فُرضت الصلاة ، وبقي أهل الإسلام على هذه الحال توحيد وصلاة ، ثم هاجر إلى المدينة في السنة الثانية من الهجرة فُرض على الناس الزكاة والصيام ، ثم في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج .

وهذا يبين تفاضل مباني الإسلام في المكانة والمنزلة وترتب الأمور في العمل بالإسلام ؛ الآن ترى في الناس من يحج ولا يصلي ولا يعتني بالصلاة! هل فهم الإسلام ؟ الحج لم يُفرض إلا بعد الصلاة بسنين عديدة ، كان الأمر توحيد ، الفرض هو التوحيد ونبد الشرك ، ثم بعد المبعث بعشر سنوات فرضت الصلاة ، وبقي ثلاث سنوات في مكة مفروضة الصلاة المكتوبة خمس صلوات في اليوم والليلة ، ثم بُعث في المدينة بقي سنتين فهذه خمس سنوات ، ثم بعد ذلك فرضت الزكاة والصيام ، ثم في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج ، وترى في الناس الآن من يحج ولا يصلي ، حتى في وقت الحج لا يحافظ على الصلاة ولا يعتني بها! هل هذا فهم الإسلام ؟ وأيضاً ترى من يحج ولكن ينقض كل شيء ويهدم كل شيء بالتعلق بغير الله ، والتوجه بالقصد لغير الله ، والالتجاء لطلب الحاجات إلى غير الله من المقبورين وغيرهم؛ يدعوهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويعرض عليهم حاجاته وطلباته من شفاء مريض أو حصول رزق أو كشف غم أو زوال هم أو غير ذلك مما لا يلجأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ فهل فهم هؤلاء الإسلام ؟

ولهذا يحتاج الناس إلى دراسة السيرة دراسة فاحصة ، ومعرفة هدي النبي ﷺ معرفة صحيحة ، وإذا لم يعرفوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يعرفوا سيرته وهديه جهلوا دينهم وضيعوه ووقعوا في أنواع من الضلالات والانحرافات ؛ ولهذا يحتاج الناس فعلاً إلى دراسة صحيحة لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتأمل في هديه وعنايته ﷺ بالتوحيد والإخلاص ، ثم الصلاة ، ثم هكذا تتدرج أمور الإسلام؛ أول ما بدأ الأمر بالتوحيد ، ثم جاءت الصلاة ، ثم جاءت الزكاة والصيام ، ثم جاء الحج، وهكذا إلى أن نزلت الآية الكريمة : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

قال : ((مثل الزكاة)) أي الزكاة المفروضة ؛ وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وسواء كان الغني بالمال ، أو كان الغني بالحرث والزراعة ، أو كان الغني بامتلاك بهيمة الأنعام؛ فكل هؤلاء يُخرجون

نصيياً من هذا المال الذي أغناهم الله سبحانه وتعالى به من فضله يخرجون جزءً قليلاً وقدرًا يسيراً من هذا المال زكاةً تُقدَّم إلى الفقراء والمحاويج ، وتكون بركةً للمال وطهرةً للمزكي وزكاةً له .

قال : ((والصَّوم)) أي الصوم المفروض ؛ وهو صيام شهر رمضان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، وهو شهر كامل يصام في السنة ، يصام نهاره من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، يُمتنع في نهاره عن الطعام والشراب والجماع وغير ذلك من المفطرات طاعةً لله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه ، ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)).

قال : ((والحجَّ)) أي وفَّرض على الناس الحج ؛ فرض في السنة التاسعة من الهجرة ، والحج : هو قصد بيت الله الحرام لأعمالٍ مخصوصة في وقتٍ مخصوص ، وهو لا يجب على المسلم في عمره كله وحياته جميعها إلا مرة واحدة ، ((الحج مرة وما زاد فهو تطوع)) ، ولا يجب إلا على المستطيع ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] .

قال : ((والجهاد)) أي في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصرة دين الله ولكي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

((والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) أي أمر الناس بالمعروف ؛ وهو ما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وما أمر به رسوله ﷺ ، ونهيهم عن المنكر ؛ أي نهي الناس عما حرم الله وما حرم رسوله ﷺ ، وهذا من الأمور المهمة والعظيمة لقيام الدين ، الدين لا يقوم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يحتاج الناس إلى ذلك وإلا فإن أمور الدين تتقوض والناس تُتخطف ويضلون عن دينهم ؛ إلا إن أكرمهم الله سبحانه وتعالى ويسر لهم بمن يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولهذا حقيقةً فإن الدعاة إلى الله والأمينين بالمعروف والناهين عن المنكر صمام أمان للمجتمع من سخط الله جل وعلا وعقابه ؛ فالناس لا تصلح حالهم إلا بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا تخلى أهل الخير عن ذلك ضاع الناس وتخطفتهم شياطين الجن والإنس ، واعتبر ذلك في البلدان والمناطق التي لا يوجد فيها أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ؛ كيف أن الفوضى تعم تلك المناطق ، والضلال ينتشر فيها ، والباطل يخيم ، ويتسلط فيها دعاة الشر والضلال والفساد .

قال : ((وغير ذلك من شرائع الإسلام)) أي وأمر عليه الصلاة والسلام بغير ذلك من شرائع الإسلام ؛ من فرائض ونهي عن المحرمات وأمر بالرغائب والمستحبات ، فلازالت الأوامر تنزل والنواهي تنزل تباعاً على رسول الله ﷺ بوحي الله جل وعلا الذي هو القرآن ، وبوحي الله جل وعلا الذي هم سنة النبي عليه

الصلاة والسلام؛ فالقرآن والسنة كله وحي الله وتنزيله ، فلما زالت الفرائض تنزل على نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أن نزل عليه قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠١] ، وسيأتي ذكرها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشَرَ سِنِينَ)) أخذ على هذا : يعني على هذه الحال تنزل عليه الفرائض والأوامر والنواهي والشرائع وهو مستقر في المدينة ﷺ ، يخرج منها لنصرة الدين والذب عن حِمَاهِ والدعوة إلى الله ، ويبعث البعث ويرسل الرسل ويكتب المكاتيب دعوةً لدين الله جل وعلا ونصرةً لهذا الدين . بقي عليه الصلاة والسلام وأخذ على هذه الحال عشر سنين ، عشر سنين إذا ضمنت إليها ثلاثة عشرة سنة قبل الهجرة وبعد البعثة ، وأربعين سنة من ولادته إلى أن بُعث يتحصل من مجموع ذلك ثلاث وستون سنة ؛ وهي مدة حياته المباركة صلوات الله وسلامه عليه . وحياته ﷺ هي أبرك حياة إنسان على الإطلاق ، وأكمل إنسان على الإطلاق في عبودية الله والذل له والقيام بطاعته والدعوة لدينه والنصرة للحق والهدى . أمضى عليه الصلاة والسلام ((أخذ على ذلك عشر سنين)) أي بعد أن استقر بالمدينة .

((وَبَعْدَهَا تُؤْفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ)) أي بعدها توفاه الله جل وعلا وقبض روحه الشريفة ﷺ ومات ، مات عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام غسلوه وكفنوه وصلّوا عليه أوزاعاً ، ودفنوه في حجرة عائشة رضي الله عنها ؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : ((يُدفن الأنبياء حيث ماتوا)) ومات عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة رضي الله عنها بين سحرها ونحرها ، ودفن ﷺ في حجرتها .

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام أعظم المصائب وأكبرها على الإطلاق ، وفُجع الصحابة رضي الله عنهم بموته ﷺ ونزل عليهم نازلة لم يمر عليهم في النوازل مثلها ، وحصلت لهم مصيبة لم يمر عليهم في المصائب مثلها ؛ حتى إن بعضاً من أصحاب النبي ﷺ شك في موته وأنكر ذلك ، حتى جاء صديق الأمة أبو بكر الصديق وكشف عن وجه نبينا ﷺ وقبّله ثم قام رضي الله عنه خطيباً في أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وقال رضي الله عنه : «من كان يعبد مُحمّداً فإن مُحمّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ؛ مُحمّد عليه الصلاة والسلام قد مات ؛ أي باعتبار هذه الحياة فارق هذه الدنيا، قضى نحبه عليه الصلاة والسلام وانتهت مدته في هذه الحياة ، وهو عبدٌ من عباد الله قبض الله سبحانه وتعالى روحه لما انتهت مدته في هذه الحياة ، قد جاء في حديث قدسي قال الله جل وعلا : ((ما ترددت في شيء ترددي في قبض روح المؤمن)) فكيف بقبض روح المصطفى ﷺ!! لكن هذه سنّة الله جل وعلا ماضية في الناس أجمعين ، فقبض الله جل وعلا روحه ﷺ ، وهي أشرف روح قبضت روح نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال أبو بكر رضي الله عنه لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام وقد توفاه الله جل وعلا وقد قبضت روحه ﷺ وفارق هذه الحياة قال : «بأي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها» أي أنه عليه الصلاة والسلام كتب الله عليه هذه الموتة وأخبره بها في وحي يتلى ولا يزال يقرأ في كلام الله جل وعلا : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، فالله جل وعلا كتب عليه هذه الموتة وأخبره بها في آيات تتلى وتقرأ في كلام الله سبحانه وتعالى ، وقبضت روحه فقال أبو بكر رضي الله عنه : «أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها» يشير إلى آيات كثيرة في هذا الباب وفي تقرير هذا المعنى .

ثم قال للصحابه رضي الله عنهم تثبيتاً لهم : «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» . وفي هذا من الموعظة ومن البيان أن العبادة ليست إلا للحي الذي لا يموت وهو رب العالمين ، أما الحي الذي يموت ، أو الحي الذي قد مات ، أو الجماد الذي لا حياة له أصلاً ؛ كل هؤلاء لا أحقية لهم في العبادة مطلقاً ، العبادة حق للحي الذي لا يموت وهو رب العالمين جل شأنه ، قال الله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه ومناجاته لربه كما في صحيحين : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وعليك أنبت وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت ، فأنت الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون» .

فنبينا عليه الصلاة والسلام بعد تلك الحياة العامة بالجد والاجتهاد والنصرة لدين الله والدعوة إلى الحق والهدى وبلاغ الدين كما أمره الله سبحانه وتعالى به والأمر بالهدى والدعوة إلى صراط الله المستقيم ؛ بعد هذه العمر الحافلة بالخير والحياة المليئة بالجد والنصح والدعوة وبيان الدين ، وهي أعمار حياةٌ وُجدت في العبودية والطاعة لله سبحانه وتعالى بعد ذلك قبضت روحه عليه الصلاة والسلام وفارق هذه الحياة التي هي الحياة الدنيا .

وهو ﷺ كما دلت النصوص ودل الواقع قد مات ؛ وهذا يتلى في القرآن ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ؛ فهو باعتبار هذه الحياة الدنيا مات وفارقت روحه جسده ﷺ . ودفن عليه الصلاة والسلام في قبره وهو في المكان الذي دفن فيه من حجرة عائشة رضي الله عنها ، دفن ﷺ بعد أن غسله الصحابة وكفنوه وصلوا عليه أوزاعاً ثم دُفن ؛ أهالوا عليه التراب ، قالت ابنته فاطمة : «أطاب لكم أن تهيلوا على نبيكم التراب؟!» لكنها سنة الله ، سنة الله جل وعلا في البشر أجمعين ، وهي ماضية ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَاقْبَرَهُ﴾ (٢١) ثُمَّ

إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿[عيس: ٢١-٢١]﴾ ، وقبر الميت ودفنه هو كرامة له ، قبره منة الله سبحانه وتعالى ودفنه وإهالة التراب على الميت هذه كرامة للميت .

الشاهد أن سنة الله سبحانه وتعالى ماضية في عباده وفي خلقه ، وكما قدمت قال أبو بكر رضي الله عنه كلمته العظيمة : «من كان يعبد مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ» ، ولا يزال الكثير من الضلال الزائعين المنحرفين عن صراط الله المستقيم لا يزالون يصرون على صرف حق الله للنبي عليه الصلاة والسلام ولغيره من عباد الله! يدعونهم ويستغيثون بهم ويطلبون منهم ويعرضون عليهم الحاجات والرغبات والطلبات ، بل بعضهم يرسل المكاتيب إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام : "أريد ولداً ، أريد مالاً ، أريد صحة ، أريد عافية .. الخ" ، «من كان يعبد مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ» ، ومن كان يعبد الله فَإِنْ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ» ؛ العبادة والدعاء والرجاء والذبح والاستغاثة والنذر وكل هذه العبادات لا يُتجه فيها ولا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] ، أما نبينا عليه الصلاة والسلام فهو عبدٌ لا يُعبد ، بل رسول يطاع ويُتبع ، أما العبادة ليست له ولا جزء يسير منها ولا قليل ، العبادة كلها حقٌ لله . غضب عليه الصلاة والسلام من رجل قال : «ما شاء الله وشئت» قال : ((أجعلني لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده)) ، لا يرضى عليه الصلاة والسلام أن يُرفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها .

فمات صلوات الله وسلامه عليه ، ودفن صلى الله عليه وسلم وأهيل على جسمه التراب ، سنة الله جل وعلا ماضية لكن دينه باقٍ ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى : ((وبعدها تُؤْفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ)) ؛ ولهذا من أراد لنفسه الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة فعليه أن يتمسك بدينه فدينه باقٍ ، وأما هو عليه الصلاة والسلام قد مات ودفن في قبره وانقطع عمله ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) ؛ ولهذا بعد موته عليه الصلاة والسلام لا يستغفر لأحد ولا يدعو لأحد ولا يسأل الغيث لأحد . الصحابة في حياته صلى الله عليه وسلم يأتون إليه ويطلبون منه ، يطلبون منه الدعاء ؛ «أدع الله أن يغثنا» ، «أدع الله أن يغفر لي» يطلبون منه الدعاء ، لكن بعد موته لا يُعرف عن أحد منهم أنه كان يأتي عند قبره ويقول : "أدع الله لي أو أطلب من الله أن يغفر لي" أو نحو ذلك هذا كله لا يُعرف ، بل جاء في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله عنها : ((إن كان ذاك وأنا حي استغفرتُ لك)) ؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن مات لا يستغفر لأحد .

ولهذا يخطئ بعض الناس ويقرأ الآية وينزلها في غير بابها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] فيقرأون الآية عند قبره ثم يقولون : "استغفر لنا يا رسول الله" !! هذا ليس من الأمور المشروعة ولا كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك إطلاقاً ، هذا كان في حياته ، وسياق هذه الآيات من يقرأها في سورة النساء يجد أنها تتعلق بالمنافقين ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ؛ فيأتي أناس وينزلون هذه الآية بغير بابها ويلغون آيات كثيرة وأحاديث عديدة ثابتة عن نبينا عليه الصلاة والسلام تحلي هذا المقصود ، ابن عمر رضي الله عنهما الصحابي الجليل كان إذا جاء قبر النبي عليه الصلاة والسلام زائراً لا يزيد على أن يقول : «السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم يا أبا بكر ، السلام عليك يا عمر أو يا أبتاه» ثم ينصرف .

فسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وحياته المباركة التي هي أبرك حياة ينبغي أن تُدرس وأن تُفقه وأن تجعل موضع اقتداء وائتساء ؛ بدل من أن يحال الدين إلى أنواع من البدع وصنوف من الضلالات وربما أعمال شركيات ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال : ((ودينه باق)) أي إلى قيام الساعة محفوظ بحفظ الله جل وعلا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره إلى أن تقوم الساعة)) ؛ فدينه عليه الصلاة والسلام باق وهو محفوظ .

ما هو دينه ؟ قال : ((وهذا دينه، لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرهما منه ، والخير الذي دلهما عليه: التوحيد وجميع ما يحبُّه الله ويرضاه، والشر الذي حذرهما منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه)) ؛ هذه خلاصة دين النبي عليه الصلاة والسلام وزبدة ما جاء به ﷺ تجتمع في هذه الكلمات ؛ قال : ((لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرهما منه)) ، وقد جاء في حديث صحيح خرجته مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم ، وأن ينذر أمته من شر ما يعلمه لهم)) ؛ وهذا عليه الصلاة والسلام فعله على التمام والكمال ، فبلغ البلاغ المبين، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرهما منه صلوات الله وسلامه عليه ؛ دلهما وأرشدتهما إلى كل خير ، ونهاهما وحذرهما من كل شر ، وأعظم الخير وأجله على الإطلاق: توحيد الله ، وقد عرفنا أنه مضى في التوحيد عشر سنوات كاملات ، ثم بعد ذلك مضى داعياً إلى التوحيد وإلى الفرائض الأخرى والشرائع الأخرى التي أمره الله سبحانه وتعالى بأن يبلغها .

قال : ((لا خيرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عليه، ولا شرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ ، والخيرُ الذي دَلَّهَا عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ)) التوحيد هو الأساس ، وهو أفراد الله جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له ، أمرهم بالتوحيد وهو أعظم الأوامر وأمرهم أيضاً بالأمور الأخرى قال : ((وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ)) مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والصدقة وبر الوالدين وصلة الأرحام والصدق والوفاء والأمانة وكل الأعمال الصالحات التي يحبها الله ويرضاها ظاهرة كانت أو باطنة.

قال : ((والشرُّ الذي حَذَّرَهَا مِنْهُ: الشِّرْكَ)) وهو تسوية غير الله بالله ، وجعل الأنداد مع الله يُصرف لهم من الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ، وهو أعظم الذنب وأكبر الجرم وأظلم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] .

قال : ((والشرُّ الذي حَذَّرَهَا مِنْهُ: الشِّرْكَ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ)) أي من المعاصي والكبائر والذنوب والموبقات كالقتل والسرقة والزنا والكذب والغش وغير ذلك مما جاء عنه ﷺ النهي عنه والتحذير منه . والذي نهي عنه صلوات الله وسلامه عليه: كبائر وصغائر ، وأهل العلم كتبوا في ذلك كتابات نافعة، ودائماً في هذا المقام أنصح بقراءة كتاب «الكبائر» للذهبي رحمه الله ، وأيضاً كتاب «الكبائر» للمصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

العلماء كتبوا كتباً خاصة في النواهي؛ لأن النواهي يجب على المسلم أن يعرفها ليجتنبها ، كما أنه مطالب بفعل الأوامر ليفعلها ، أما من لم يعرف ما نهي الله عنه وما حرمه الله عليه كيف يتقيه ، وقد قيل قديماً : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!» . حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كما جاء في صحيح البخاري قال : «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» . فمعرفة الشر من أجل توقي الشر والبعد عنه وعدم الوقوع فيه أمر مطلوب من المسلم ؛ ولهذا ترى الناس عندما يعيشون حياة الجهل يقعون في أنواع من المحرمات ربما لا يدري بعضهم أنها محرمة ، وربما بعضهم لا يري حجم عقوبتها عند الله سبحانه وتعالى ، ولهذا يحتاج المسلم أن يغتنم وجوده في هذه الحياة الدنيا أن يقرأ وأن يعرف الكبائر ﴿إِنَّ تَجَنُّبَكُمْ كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ، فمطلوب من المسلم أن يعرف الكبائر وأن يجتنب الكبائر وأن يحذر منها . وأكبر الكبائر الشرك بالله كما قال عليه الصلاة والسلام : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)) ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أحاديث كثيرة .

قال رحمه الله تعالى : ((بعثهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّةً)) إلى الناس : أي إلى العرب والعجم إلى الذكور والإناث ، إلى الصغار والكبار ، بعثه الله جل وعلا إلى الثقلين ؛ إلى الإنس والجن .

قال رحمه الله تعالى : ((بعثه الله إلى الناس كافةً وافترض الله طاعته على جميع الثقلين)) افترض طاعته ؛ تغير المفهوم عند بعض الناس وتحولت الطاعة إلى عبادة له ، والله جل وعلا افترض على الناس طاعته وإتباع أمره ولزوم ما جاء به ، لا أن يتخذ نداً مع الله يُدعى ويستغاث به وتصرف له من العبادات ما لا يصرف إلا لله جل وعلا.

قال : ((وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس)) وهذا أمر أجمع عليه المسلمون قاطبة؛ أنه عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الثقلين الإنس والجن، ورسالته عامة ، بينما كان الأنبياء قبله يُبعث كل نبي في قومه خاصة ، وبعث النبي ﷺ للناس عامة وللثقلين كافة .

قال : (والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾) وجاءت آيات في القرآن تدل على أن بعثته عليه الصلاة والسلام شاملة للجن ؛ مثل الآية التي في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى آخر الآية والآيات بعدها ، فهو عليه الصلاة والسلام بُعث للثقلين الإنس والجن ، وافترض على الجميع طاعته ﷺ ، وأخبر أن من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار .

قال : ((وأكمل الله به الدين)) ؛ ونزل عليه في ذلك تنصيهاً وتبييناً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] «اليوم» في هذه الآية المراد به يوم عرفة ، لأن هذه الآية الكريمة نزلت على النبي ﷺ عشية عرفة وهو واقف بعرفة ويهلل ويذكر الله ، نزلت عليه الآية هذه في تلك الأثناء وهو واقف بعرفة عشية عرفة؛ نزل عليه قول الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، وجاء في صحيح البخاري أن نفرًا من اليهود قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : «نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً» ماذا نستفيد من هذه الكلمة ؟ أن اليهود أدركوا عظمة هذه الآية وفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بهذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ؛ فيدركون أن هذه الآية عظيمة جداً ، ولكن ترى في المسلمين من لا يعي هذه الآية! الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ثم يتركون الدين الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام ويعبدون الله ببدع ليست من الدين ، ليس فيها قرآن ولا سنة بل هي محدثة داخلة في قوله عليه الصلاة والسلام : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) ، ولهذا لم يعي هؤلاء هذه الآية وفي هذا قال الإمام مالك إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى: «من قال في الدين بدعة

حسنة فقد زعم أن مُحَمَّدًا ﷺ خان الرسالة» لماذا ؟ قال : «لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾» ؛ إذا كان الدين كامل لماذا البدع ؟ ولماذا الإحداث ؟ ولماذا الاختراع ؟ الدين كامل ، الكامل لا يُبحث له عن تكميل ، الذي يُبحث له عن تكميل الناقص ، أما ديننا كامل لا نقص فيه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فالدين كامل لا يحتاج إلى مكملات . فالذي يعبد الله سبحانه وتعالى ببدع ليس عليها دليل في القرآن ولا في السنة أين هو من هذه الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؟ ولهذا قال مالك : «من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن مُحَمَّدًا ﷺ خان الرسالة لأن الله تعالى يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾» ، وما لم يكن ديناً زمن مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة» ، ثم أتم قوله بقوله : «ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» ، وأول الأمة إنما صلحوا بالإتباع لا بالابتداع وبالالتساء ، يقول عبد الله بن مسعود : «إنا نفتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر».

فالشاهد أن نفرًا من اليهود قالوا لعمر : «نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً» فقال عمر رضي الله عنه : «إني أعرف متى نزلت والساعة التي نزلت والمكان الذي نزل فيه على رسول الله ﷺ؛ نزلت عشية عرفة في صعيد عرفة وهو واقف عليه الصلاة والسلام يناجي ربه» ، نزلت عليه هذه الآيات : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ .

بعد هذه الآية التي فيها الإخبار بأن الدين كُمل كم عاش ؟ هذه الآية نزلت عليه في التاسع يوم عرفة من شهر ذي الحجة ، بعدها عليه الصلاة والسلام عاش واحد وثمانين يوماً بعد هذه الآية ، في هذه الواحد والثمانين يوم ما نزلت آيات فيها أحكام ؛ أوامر ونواهي ، أحكام أخرى لم تنزل بعد هذه الآية لماذا ؟ لأن الآية نزلت معلمة النبي عليه الصلاة والسلام بأن الدين كمل تم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ ولهذا عاش بعدها عليه الصلاة والسلام واحد وثمانين يوم لم ينزل عليه فيها أمر ولا نهي ، لم ينزل عليه شرائع وأحكام ، لأن الأحكام اكتملت وتمت في ذلك اليوم المبارك الذي هو سيد الأيام وخير الأيام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((خير الدعاء دعاء يوم عرفة)) يوم عرفة خير أيام الدعاء وأرجى أيام الدعاء ؛ فنزلت عليه هذه الآية وبعدها لم ينزل عليه ﷺ أوامر ونواهي وأحكام .

ثم ترى في الناس بعد ذلك من يطرحون هذه الآية ويلغون دلالتها ويشغلون بالتعبد بالبدع والمحدثات والمخترعات وأمور ما أنزل الله سبحانه وتعالى! هل هؤلاء فهموا هذه الآية ووعوا دلالتها ؟ لا والله ، الذين وعوا دلالة هذه الآية هم الذين تجنبوا البدع ولم يدخلوا في شيء منها ، ولزموا دين الله تبارك وتعالى وتمسكوا

به وحافظوا عليه ولم يحدثوا شيئاً ولم يخترعوا شيئاً ، مثل ما قال عبد الله بن مسعود قال: «إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر» ، ترى في الناس أعمالاً ليست موجودة في القرآن والسنة ، زيادات ليست موجودة إطلاقاً في القرآن والسنة وإذا سألت عن المصدر أحدهم يقول : رأيت في المنام ، والثاني يحكي حكاية ، أو يذكر تجربة ، أو يروي ذوقاً ووجداً ، أو ينسب إلى شيخ أو طريقة أو غير ذلك ؛ أمثل هذا يُتعبد الله ؟! وينسى قول الله جل وعلا : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ؟

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أن دين الله عز وجل كامل ، والكامل لا يحتاج أن يكمل ، الذي يحتاج أن يكمل هو الناقص أما دين الله فكمال . ﴿وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ؛ وهذه أكبر نعمة الدين وكمال الدين والهداية للدين هذه أكبر النعم وأجلها . قال : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي فارضوه لأنفسكم ولا تقبلوا ديناً غيره ولا ترضوا لأنفسكم ديناً سواه فإنه الدين الذي رضي به الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، ولهذا جاء في آية أخرى أن الله يقول : ﴿وَمَنْ يُبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

قال : ((والدليل على موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) هذه تعتبر قضية كبيرة الآن من القضايا الكبار التي جهلها كثير من الناس وضللت فيها كثير من الأفهام ، وأصبح يغالط الناس في حقيقة يشهد لها القرآن الكريم ويشهد لها أحاديث النبي ﷺ وسيرته وواقع الأمر .

قال : ((والدليل على موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾)) ؛ «إِنَّكَ مَيِّتٌ» أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ثم توفاه الله جل وعلا لما انتهت مدته التي كتبها الله سبحانه وتعالى له في هذه الحياة ؛ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] .

قال : ((والدليل على موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾)) أي إنك أيها النبي ستموت . ومات عليه الصلاة والسلام ، وكان ﷺ إذا زار القبور ماذا يقول ؟ «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» . قال : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ .

قال : ((والنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾) الضمائر هنا كلها تعود على الأرض؛ «منها» و«فيها» و«منها» الضمائر كلها تعود إلى الأرض. ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ لأن بني آدم أصلهم من آدم وآدم من تراب ، خلقه الله سبحانه وتعالى من التراب ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي أن كل واحد منكم أيها الناس سيموت ويعاد إلى الأرض أي أنه يدفن فيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي أنكم أجمعين سوف تبعثون ؛ تنشق الأرض عمن فيها ويبعثون قياماً لرب العالمين ، مثل هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] .

قال : ((وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَتَبُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾)) الإشارة هنا إلى مبدأ خلق بني آدم من الأرض ، لأن آدم عليه السلام من تراب خلقه الله جل وعلا من تراب ؛ هذا معنى قوله : ﴿وَاللَّهُ أَتَبُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض ؛ حيث من مات يُدفن في الأرض ويوارى بالتراب .

قال: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يعيدكم وتبعثون من القبور وتقومون جميعاً لرب العالمين للجزاء والحساب والعقاب. ولهذا قال رحمه الله : ((وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسِبُونَ)) أي بعد بعث الناس وقيام الناس لرب العالمين الكل يحاسب ؛ محاسبون ومجزيون بأعمالهم. قوله : ((محاسبون)) أي على الأعمال حسننها وسيئها ، صالحها وفاسدها ، يحاسبون على الأعمال

((وَمُجْزِئُونَ بِأَعْمَالِهِمْ)) أي كلٌ يجازى بعمله إن خيراً أو شراً ، سواء قلَّ العمل أو كثر .

قال : ((والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾)) فالكل مجزي بعمله؛ المحسن يجازى بالإحسان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، والمسيء يجازى بالعقوبة ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْىَ﴾ [الروم: ١٠] ، ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦] ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] .

قال : ((وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرًا)) أي من زعم وادّعى أنه لا بعث وليس هناك جزاء وحساب وقيام بين يدي رب العالمين من كذب بذلك فهو كافر .

((والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمُوا﴾)) أي أن الكفار أنكروا البعث وأنهم

يعثون ويقومون للحساب ويجازون على الأعمال

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي تُخبرون بأعمالكم كلها محصاة عليكم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيّن وسهل وليس بعسير بل هو يسير على الله تبارك وتعالى .

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ «بلى وربي» هذا قسم وحلف بالله أمره الله سبحانه وتعالى به ، أمره أن يقسم بالله جل وعلا على البعث . وفي القرآن آيات ثلاثة فيها قسم النبي ﷺ وحلفه على البعث:

١ . منها هذه الآية .

٢ . والآية الثانية هي قول الله تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] .

٣ . والثالثة قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ [سبا: ٣]

فهذه ثلاث آيات في القرآن كلها يأمر فيها الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يقسم بالله على هذه الحقيقة ؛ وهي أن الساعة آتية ، وأن الناس يبعثون ، وأنهم سيقومون بين يدي رب العالمين ، وأنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وهذا الجزاء والحساب والقيام بين يدي رب العالمين المذكور في هذه الآيات وفي غيرها أمرٌ سندركه جميعاً وسنلقاه وسنقف جميعاً بين يدي الله تبارك وتعالى وسيحاسب العباد على أعمالهم ؛ ولهذا الكيس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . وعلى كل عاقل أن يدرك أن الآخرة مقبلة وأن الدنيا مديرة ، وأن الآخرة لها أبناء وأن الدنيا أيضاً لها أبناء ، وأن الواجب على العاقل أن يحرص أن يكون من أبناء الآخرة الباقية ولا يكون من أبناء الدنيا الفانية ، وأن يعلم أن هذه الحياة ميدان للعمل ، فيها عمل ولا حساب ، ويوم القيامة فيه حساب ولا عمل ؛ فينبغي أن يعد للحساب عدته ، وأن تكون العدة هي الإخلاص لله جل وعلا والإتباع للرسول ﷺ ، يجاهد ويرابط ويسأل الله جل وعلا أن يثبتته على الحق والهدى إلى أن يلقي الله جل وعلا وهو راض عنه .

وآيات الحج - كما أشرت - ختمها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ؛ فإذا علمت واستيقنت واستحضرت أنك ستُحشر ، وأنت ستلقى الله سبحانه وتعالى ، وأنت ستفارق هذه الحياة الدنيا ، تفارق الأولاد ، تفارق التجارة ، تفارق الأموال تفارق كل شيء ، وأنه لن يدخل معك في قبرك من دنياك إلا عملك ؛ أما الأولاد لا يدخلون ، الجيد من أولادك التي يأتي معك إلى القبر ، والآن يوجد من بعض الأولاد من لا يأتي مع والده عند قبره من العاقين ، منهم من لا يأتي معه حتى عند قبره ، فالجيد من الأولاد من يأتي مع والده إلى قبره ويشارك في دفنه وتشيعه ويدعو له ((أو ولد صالح يدعو له)) ، وأما تجارتك وأموالك وبيوتك إلى آخر ذلك كل هذا بمجرد ما تخرج روح الإنسان من جسده تنتهي هذه الأمور في حقه ولا يكون مالكاً منها شيء ، ولا يأتي معه في الآخرة منها شيء كلها يفارقها ، لو كانت ريالاً واحداً أو كانت ملايين الريالات ؛ يستوي الغني والفقير ، والمملك والمملوك ، والرئيس والمرؤوس ، والتاجر وغير التاجر ، كلهم إذا خرجت أرواحهم من أجسادهم لم يصبح معهم مما يمتلكون شيء من أمور الدنيا ، بل لا يدخل معه من أملاكه من أمور الدنيا إلا الكفن ، والكفن بعد أيام يبلى تأكله الأرض ما يبقى معه ، يبلى وتأكله الأرض ويبقى بدونه ، ولا يدخل مع الإنسان في قبره إلا العمل ، وهو قبره يأتيه عمله الصالح؛ إن كان عملاً صالحاً يأتيه كما جاء في الحديث بصورة رجل صالح فيقول : من أنت ؟ وجهك لا يأتي إلا بالخير ، يقول : أنا عمالك الصالح . والعمل السيئ يأتي بصورة رجل سيئ ويتأذى الإنسان منه في قبره ، لكن فات الفوات ولا ينفع الندم ، والعاقل يستعد .

من جميل ما يذكر ويؤثر ويستفاد به جداً وينتفع : أن أحد السلف أراد أن يعظ رجلاً مقصراً ؛ فأخذه إلى المقابر وأشار له إلى أحد القبور وقال له : لو كنت مكان هذا الرجل في القبر ماذا تتمنى ؟ قال : والله لو كنت مكانه لتمنيت أن يرجعني الله سبحانه وتعالى للدنيا حتى أغير حالي وأعمل صالحاً غير الذي أعمله الآن ، قال : يا هذا أنت الآن فيما تتمناه ، أنت الآن عندك الفرصة؛ أعمل وأصلح نفسك وغير حالك واستعد للقاء ربك جل وعلا قبل أن تُدخل في القبر ثم تكون هذه أمنية لكن لا يمكن أن تتحقق لك . إذا دخل الإنسان القبر ودُفن ما يمكن أن يُرجع إلى الدنيا ليصلح حاله ، قال : أنت الآن فيما تتمناه ؛ ولهذا يغتنم الإنسان فرصة وجوده في هذه الحياة ، روحه في جسده يستطيع يذكر الله ، يوحد الله ، يعبد الله ، يصلي ، يصوم ، يجتنب المحرمات والمنهيات ، يجاهد نفسه على الصلاح والتقوى والعبادة لله تبارك وتعالى وربّه جل وعلا راض عنه . والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .